

الغزل والنسيج التقليدي في منطقة شندي

هيام محمد الأمين أحمد سليم

ملخص: درج الإنسان منذ العصور الحجرية على برم الالياف النباتية ونسجها، وذلك لاستخدامها في الحياة اليومية، ومن ثم أستخدم الكتان والقطن للغرض نفسه، ثم ظلت حرفة الغزل والنسيج اليدوي يمارسها الإنسان حتى وقتنا الحالي، وإن كان بدرجة محدودة للغاية. كشفت التنقيبات الأثرية عن قطع منسوجة للأغطية والملبوسات. طرحت الكثير من الاستفسارات تتعلق بكيفية ووسائل ومعدات تلك الحرفة. في هذه الورقة أستخدمنا مناهج إثنوآركلوجية لتأصيل وتوثيق حرفة أخذت في الزوال كشفنا من خلالها على كثير من أسرار تلك الحرفة وخفاياها.

Abstract: This paper attempts to illustrate one of the traditional professions that have played major social and economic roles in the life of the ancient Sudanese; namely, the traditional weaving and textile. This tradition is fading out, and the town of Shendi in Central Sudan, is one of very few places where the tradition is still surviving. As the future holds little or no hope for such professions to continue, it should, for the sake of future generations, be adequately illustrated and preserved.

المخلفات المادية الأثرية للغزل والنسيج أسئلة، كنا في حاجة لتسليط الضوء عليها. كان المنهج الإثنوآركلوجي حاضراً في مثل هذه الحالات، حيث تدرس المادة التراثية المعاصرة بمنهج آثاري لتسليط الضوء على تلك التساؤلات. وقد وقع اختيارنا على أحد المجتمعات القليلة المتبقية لصناعة النسيج التقليدي في مدينة شندي. قامت الباحثة بإجراء مسح استطلاعي، ثم زيارات ميدانية، جمعت خلالها مادة عبر الاستطلاع والمشاهدة وطرحت الأسئلة. ثم وثقت كل ذلك بالتدوين والتصوير والرسم.

الإثنوآركلوجيا وعلم الآثار:

تعمل منظمة اليونسكو عبر مكاتبها الإقليمية وبرامج تطوير المتاحف على صيانة المجموعات المهددة بالخطر في إفريقيا، كجزء من صيانة الممتلكات الثقافية وصيانة التراث. ويتركز هذا المشروع على جمع وصيانة وتوثيق وعرض المنسوجات والمخطوطات والسلال والمصنوعات الخشبية والجلدية والمعدنية، بحكم أن الكثير من هذه الممتلكات أخذت في الاختفاء (المتحف الدولي ٢٠٠٦: ١٢٠). سيرا على هذا النهج تسعى هذه الورقة إلى محاولة توثيق

تشكل دراسة التراث المادي أحد روافد دراسات الحضارة، بحكم كونها تعكس جوانب عديدة من واقع المجتمع البشري، الذي برزت فيه وشكلت أحد جوانب التكيف الخاص به. والاهتمام بدراسة هذا التراث لم تأت تلبية لكونه جزءاً من الواقع الحضاري لمجتمع ما فحسب، بل لكونه يعكس واقعاً أخذ في الزوال والتلاشي. هذا التراث سيتحول عاجلاً، بحكم حركة التطور والنمو المتسارعة، إلى السجل الأثري. عندها سنجد أنفسنا نبحث عن حقائق قد لا يسعفنا السجل الأثري وحده في الإجابة عليها. لذا، وجب علينا قبل أن نصل إلى تلك الحالة أن نسجل هذا التراث في محيطه البيئي والاجتماعي، ووسط أناس أحياء يمارسونه، لكونه شكلاً جزءاً من حياتهم وتكيفهم. وقبل أن يصبح ذلك التراث أثراً ويزول أصحابه، يكون التعامل معه أسهل وأكثر مباشرة وبأقل جهد وأوفر معلومات وعطاء.

من هذا المنطلق، تحاول هذه الورقة أن تعرض لحرفة تقليدية لعبت دوراً مهماً في حياة المجتمعات القديمة والحديثة، ولا تزال تلعب دورها في المجتمعات المعاصرة.

لقد طرحت المادة الأثرية الخاصة بها والتي تتمثل في

الكثير من المعلومات عن حياة القبائل البدائية التي تعيش هناك، وعن طرق حياتهم وأدواتهم التي كان بعضها شبيهاً بما تم الكشف عنه بواسطة الأثاريين في أوروبا (الحسن ومحمد علي ٢٠٠٨: ٦٤)، هنا برز دور المقارنات والمقاربات الإثنوغرافية في تسليط الضوء على المعثوات الأثرية. حيال ذلك قامت بعض المتاحف الأوروبية بمحاولة إثراء مقتنياتها وكشف بعض الجوانب الخفية في حضارات ما قبل التاريخ الأوروبية، بإرسال بعثات إلى أمريكا لجمع مادة إثنوغرافية عن الهنود الأمريكيين، وأخرى إلى الجماعات البدائية في إفريقيا وأستراليا (الحسن ومحمد علي: ٦٤). نتج عن ذلك تقديم مادة ثرية عن تلك الشعوب، شملت مختلف أنماط حياتهم، وقدمت وصفا كاملا ومفصلا لعناصر ثقافتهم المادية والمعنوية، من أدوات ومعدات وفنون ومصنوعات وحرف ومعتقدات ونظم وعادات. قدمت تلك المعلومات تصوراً لتطور الحضارة البشرية، وأظهرت التدرج في مسيرة الإنسان من البساطة للتعقيد (الأمين ٢٠٠٨: ٣٩) أسهمت تلك المادة أيضا في تفسير معثورات أثرية كانت محل جدل بين الأثاريين (دانيال ٢٠٠٠: ٦٨)، منها على سبيل المثال حقيقة الأدوات الحجرية التي كان يظن أنها قطع من نيازك أو أنها أسلحة الجن. ولكن حين جاءت شبيهاها من الهنود الأمريكيين تأكد أنها أسلحه من صنع البشر. سار الأثاريون على هذا النهج الإثنوغرافي لفترة طويلة، غير أن بعض جوانب القصور في هذا النهج بدأت تظهر مع بروز علم الآثار الحديث (New Archaeology). خلال الفترة ١٩٦٠. ١٩٧٠م لوحظ أن التشابه بين المعثوات لا يكفي لتفسيرها لأنه لا ينطبق مع معرفتنا بالخصائص البنيوية والوظيفية للنظم الثقافية (الأمين ٢٠٠٨: ٦١).

والتشابه بين ظاهرتين؛ أثرية ومعاصرة، يمكن أن يكون نتيجة تأثير داخلي أو خارجي. بمعنى أن السمات في الشكل لا تكفي للتفسير، فالمواد الأثرية نجدها خارج الإطار الثقافي الذي أنتجها. جاء نقد التوجه الإثنوغرافي من ملاحظة أن الصيادين والمزارعين أو غيرهم، قد تعرضوا لمؤثرات حضارية وظروف تختلف عما يتعرض له الصيادون والمزارعون الحاليون؛ فمنهم من دفعته الظروف إلى مناطق غير المناطق التي يود أن يعيش فيها. كما أننا

وعرض حرفة الغزل والنسيج التقليدي في وسط السودان متخذة من مدينة شندي، إحدى أهم المراكز، بل لعلها المركز الوحيد المتبقي، لإنتاج الغزل والنسيج التقليدي في السودان مثالا. إن هذا التوجه في رأينا يخدم قضيتين أساسيتين:

- ١- تقديم دراسة إثنوآركيولوجية تجيب من خلالها على كثير من جوانب الغموض التي تكتنف حرفة الغزل والنسيج الأثري، والتي تعجز المادة الأثرية بمفردها عن تسليط الضوء عليها، ومن ثم تكشف أبعادا فنية وتقنية واجتماعية عن مجتمعات قديمة.
- ٢- إبراز جانب من تراث الأمة يرتكز عليه حاضرها ومستقبلها ويعمل على ترابط نسيجها ويسهم بشكل فاعل في تقوية الشعور بالهوية، ويكشف تنوعها وطرق تكيفها ويفتح منافذ أمام التنمية برسم قاعدة من القيم والترابط والإنجاز.

في هذه الورقة سنطرق القضية الأولى أعلاه بشكل مباشر، إذ إن القضيتين معا تشكلان عبئا فوق طاقه ورقه بهذا الحجم. ونعرض في البدء إلى خلفية عن المنهج الإثنوآركيولوجي ومجالاته واستخداماته.

المقاربات الإثنوغرافية:

درج الأثاريون الأوائل على استخدام المقاربات الإثنوغرافية لتفسير ما يصعب عليهم تفسيره من ظواهر ومعثورات أثرية، بحثا عن ظواهر ومعثورات في مجتمعات تقليدية معاصرة تشابه رصيفاتها الأثرية، تسهم في شرحها وفهمها. يذكر جون لوبك في كتابه (أصل المدينة) الصادر عام ١٨٦٩ «أن الأسلحة والأدوات المستخدمة حاليا من قبل الجماعات البدائية تسلط الضوء على مثيلاتها المكتشفة في المدافن القديمة. وأن المعرفة بالجماعات البدائية المعاصرة وأنماط حياتهم يمكن أن تسهم في رسم صورة أسلافنا وطرق تفكيرهم» (الحسن ومحمد علي ٢٠٠٨: ٦٣). تلك المعثورات والظواهر في المجتمعات التقليدية المعاصرة أسهمت في شرح الكثير مما استعصى شرحه على الأثاريين، سواء في وظائف تلك المعثورات أو طرق تصنيفها. وأسهم اكتشاف الأمريكيتين وأستراليا بدور كبير في ذلك، إذ عاد بعض الأوروبيين من تلك الأماكن يحملون

الاثنواركيولوجي تطوير منهج في عمل البحث الميداني من أخذ العينات وإجراء التصنيف مع ضرورة التسجيل الصوتي والتصوير حين يحتاج الأمر لذلك واستخدام الخرائط وأجهزة الحاسب. وعلى الباحث تجنب المعلومات العامة أو جمع معلومات من أفراد وظروف غير طبيعية. وفى حالة دراسة منتج ثقافي مادي كالفخار مثلاً عليه تتبع كل الخطوات اللازمة لتلك الحرفة بدءاً من معرفة نوع المادة الخام (التربة) وأماكن جلبها ونوع الشوائب التي تضاف للتربة وقدرها، وأماكن جلبها أيضاً، ونسبة خلط الشوائب مع الماء والتربة، وتخميم العجينة، ومراحل البناء والزخرفة والحرف والتسويق والاستهلاك، إلى جانب كل ما يتعلق بالصناعة (الحسن ومحمد على ٢٠٠٨).

الاثنواركيولوجيا والدراسات السودانية:

استخدمت الإثنواركيولوجيا في عدة مجالات في الدراسات الآثارية السودانية، نذكر منها على سبيل المثال (ما قام به روبرتسون وعباس سيد أحمد محمد على عن الفخار اليدوي المروي في مركز لتصنيع ذلك الفخار على أطراف موقع مدينة مروي القديمة بعد أن لاحظا التباين في الكم الهائل من الكسر الفخارية اليدوية التي تغطي سطح المدينة (Robertson and Mohammed-Ali 1973)).

كذلك قام كندال بدراسة إثنواركيولوجية لإناء مروي يعرف بإناء كرانوق، الذي يحوى مشاهد مفصلة للحياة اليومية في قرية مروية (Kendall: 1989).

وفى مجال الدراسات المروية أيضاً، قامت نهى عبدالحافظ بدراسة حاولت من خلالها تفسير استخدام أداة السفروك التي تظهر ضمن الرسومات المروية على جدران مجمع المصورات الصفراء. تتبعت الأنواع والاستخدامات الحالية للسفروك في رحلة الصيد (عبدالحافظ ٢٠٠٥).

خلصت تلك الدراسات وغيرها إلى نتائج جيدة سلطت الضوء على جوانب من الحضارة الكوشية لم يكن تفسيرها من المعثورات الآثارية سهلاً. وقد تم ذلك بمنهج إثنواركيولوجي أثبت جدواه ليس في حفظ تراث أخذ في الزوال فحسب، بل في تفسير تراث زال بالفعل.

نحصر أولئك القدمات في الظروف المتاحة لرصفائهم في الوقت الحالي إذ نحن اعتمدنا على القياس الإثنوغرافي إضافة إلى السلوك والتركيب الاجتماعي في كل عهد.

أصبح الأمر ليس فقط ملاحظة أوجه الشبه، وإنما وجود تكرار وتوافر شروط بيئية أو ثقافية تسمح بالوصول إلى تعميم أو قانون، مع الاتفاق أن القياس الإثنوغرافي قد يقود إلى نتائج خاطئة.

المنهج الإثنواركيولوجي:

علية جاءت الإثنواركيولوجيا Ethnoarchaeology أو الإثنوغرافيا الآثارية كمنهج آثاري وإنثروبولوجي يوظف لدراسة الحضارة المادية في المجتمعات المعاصرة» في إطارها البيئي والاجتماعي بجمع معلومات عن طريق المشاهدة في سياقها اليومي، حيث يقوم الباحث بمتابعة العنصر المادي منذ بدايته وحتى النهاية، أي حتى تلك المرحلة التي يصبح فيها جزءاً من السجل الأثري. وبالتالي هي عمل إثنوغرافي يتم بمنهج آثاري حيث لا بد أن يقوم بالعمل باحث آثاري لأن هدفه هو ربط الحاضر بالماضي.

ينطلق القياس من الحاضر المعروف إلى الماضي غير المعروف. وهنا نلاحظ الارتكاز الجزئي للإثنواركيولوجيا على الإثنوغرافيا. وربما جزئي لأن الإثنواركيولوجيا تذهب لاستخدام تلك المشاهدات المعاصرة لتفسير ظواهر من الماضي. راح الآثاريون ينظرون في المجتمعات البدائية عليهم يجدون ظواهر تفسر ظواهر أخرى كشف عنها العمل الأثري، مما يساعد في فهمها كان أول ظهور لعبارة اثوار كيوجيا في نحو عام ١٩٠٠ لكن العبارة غابت بعد ذلك عن الاستخدام حتى كان مولد علم الآثار الجديد في ستينيات القرن العشرين لتصبح أحد إفرازات ذلك التيار. وعليه كثر استخدامها بعد ذلك، وتعددت التفسيرات التي طرحت لمصطلحها (الأمين ٢٠٠٨: ١٥-٢١). تعددت مجالات العمل الإثنواركيولوجي بحكم ارتباطها بقضايا الآثار التي تشمل كل عناصر التراث المادي وما يحيط به من ظروف بيئية وثقافة وغيرها. ويشمل ذلك الحرف بمختلف مجالاتها إلى جانب الممارسات من رعي وزراعة وتجارة، وما تتطلبه الحياة اليومية من عمارة سكنية وملبس. يتطلب العمل

الغزل والنسيج في الحضارات القديمة:

مصطلح (الحرفة):

تعرف الحرفة بأنها الصناعة التي تستخدم المهارة اليدوية في إنتاج سلع حرفية ذات جودة عالية، ولا تخضع لمقاييس محددة. وتتصف الحرف بالتأثر جغرافيا حيث تمارس أنشطتها المتنوعة في مختلف الأرجاء والأنحاء وتضم العمالة بنوعها ذكورا وإناثا (علام ١٩٩١ : ٢٠-٢٣). والحرف التقليدية هي تلك الحرف التي يمارسها الحرفيون التقليديون، ويستخدم إنتاجهم كل أعضاء المجتمع فهي بتصميمها وتقنياتها تنتقل من جيل إلى جيل عن طرق التعليم. (Madani 1980:25) والحرفي بصورة عامة له وظيفة مهمة في المجتمع منذ القدم، وهي أن يمد مجتمعه باحتياجاته اليومية الضرورية، كما كتب جيمس أرنولد أن الحرفي هو ذلك الفرد في المجتمع الذي يصنع الأشياء مستخدما يديه فقط، تساعد في ذلك بعض الأدوات البسيطة.

نشأة حرفة الغزل والنسيج وتطورها:

صناعة الغزل والنسيج متعارف على تسميتها بصناعة النسيج، وتضم عمليات العديد من القطاعات (غزل، نسيج، تجهيز ملابس) ملازمة لظهور الإنسان على الأرض وفي سعيه لوقاية نفسه من عوامل الطبيعة. وقد شهدت تطورا هائلا عبر تاريخها، إذ اعتمد الإنسان في البدء على جلود وفراء الحيوانات، ثم اكتشف الألياف النباتية قبل أن يستحدث الألياف الصناعية، فقام بنسجها (إبراهيم ١٩٧١ : ٩٥). وصناعة النسيج حرفة زاولها الإنسان وتطورت مع تطوره، فصنع ما يستر جلده ويقيه برد الشتاء وحر الصيف وتعلم من الطبيعة نسج العنكبوت وعش الطائر وتشابك الألياف والأوراق في النسيج الطبيعي، فأقام الإنسان نموذجا بارزا يحتمي به (محمود، ٢٠٠٦ : ٥).

لا أحد يعلم متى بدأ النسيج في العالم القديم فقد اختلفت آراء الباحثين حول بداية الغزل والنسيج ما شكل جدلا بينهم، وربما كانت البداية العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك لأن إنسان ذلك العصر ظهر وهو يرتدى جلود الحيوانات مخاطة مع بعضها بواسطة إبرة من العظم وسير

من الجلد، أو من لحاء سيقان بعض النباتات. ويعتقد البعض أن الغزل قد سبق النسيج، وهذا طبيعي ومنطقي إذ كانت المواد تغزل لسحب الأشياء ولربطها مع بعضها بعضاً، وذلك من أجل صنع الأسلحة والأدوات. فالخيوط استخدم في العهود القديمة في أغراض مختلفة منها صناعة الشباك وصيد الأسماك وأخيرا للنسيج (Broudy1979).

يذكر بليني أن القطن قد عرف بشكل جيد في «السودان» خلال القرن الأول الميلادي ثم لاحقا في مصر (عيسى ١٩٠٣:٢٠٠٣). والحفريات الأثرية التي أجريت في السودان أثبتت أن السودانيين مارسوا صناعة الغزل خلال الفترة المروية، إذ يذكر شيني أن قطعا من القماش القطني تدل على وجود نوع من الغزل والنسيج وقد استخدمت (shinnie 1967: 159). وقد عثر في مواقع المساكن المروية على أعداد كبيرة من أوزان منسج طينية مثقوبة، وقد وجد في جزيرة ميلي على أوزان عديدة تفوق الخمسين وكلها وجدت في حجرة واحدة. وأيضا عثر على عدد من معدات النسيج في الحجرة نفسها. هذه الأداة لم تكن هي المغزل المصري المأثور منذ القدم لكن يحتمل أن تكون إدخالا إغريقيا إلى وادي النيل (آدمز: ٢٠٠٤، ٣٤٣). إن وجود هذه المواد في منازل شعبية يشير إلى أن النسيج المروى لم يكن مستجلبا. لكنه مثل صناعة الفخار اليدوي، كان ينفذ في المنزل بواسطة عامة النساء. كذلك عُثر في مقابر كرا نوق ومروى على جلايب قطن. ولما كان بليني يتحدث عن القطن في «السودان» في القرن الأول الميلادي لم يكن القطن شائعا في مصر حتى وقت متأخر بكثير. وهناك سبب جيد للاعتقاد بأن منسوجات القطن في النوبة المروية كانت صناعة محلية (آدمز: ٢٠٠٤، ٣٤٣).

الغزل:

ينتمي القطن إلى عائلة Gossypium التي تنفرع إلى عدد من الأشجار التي تنتج أنواعا منه. ويذكر أن الموطن الأصلي للقطن حيث ينمو بشكل طبيعي (بري) هو الهند والحبشة والسنگال. ويضيف بعض الباحثين منطقة إفريقيا شمال خط الاستواء وشرق آسيا (Forbeo1964:43).

تنتج شجرة القطن زهرة جميلة حمراء إلى بنفسجية

قدم العصر الحجري الحديث أدلة وافرة على استخدام الإنسان للنسيج. فهناك طبقات لقطعة نسيج على فخار يعود تاريخه إلى نحو ٧٠٠٠ ق.م في تركيا. وفي موقع شتل هيوك في جنوب تركيا، عثر في الطبقة السادسة التي يعود تاريخها إلى نحو ٨٥٠٠ ق.م. على مدفن جماعي غطت فيه الهياكل بأكفان بأنواع من النسيج بعضها خشن وآخر ناعم غير أن الملاحظ أنها جميعا كانت من الصوف. وهناك نسيج نباتي عبارة عن حصاير. وكان هناك اعتقاد أن أقدم نسيج معروف هو الذي جاء من موقع الفيوم الذي يعود للعصر الحجري الحديث (Caton thompson, and Gardiner 1934:28)، وهو في معظمه مواد نباتية. أما ما عثر عليه في شتل هيوك فهو أول نسيج مصنوع من الصوف إضافة إلى كونه أقدم من الفيوم بنحو ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ سنة (Helback 1963:34-46).

ولعل استئناس الحيوان قد لعب دورا مهماً في تطور النسيج، إذ أصبح بمقدور الإنسان استخدام الصوف من الضأن والماعز وغزله. وتشير أدلة من كردستان تعود إلى ٤٠٠٠ ق.م إلى استخدام الصوف كمادة خام للغزل (ibid:193). إضافة إلى ما عثر عليه في الفيوم من منسوجات من الكتان وقد كشف موقع البداري الذي يعود إلى حقبة ما قبل الاسرات في مصر على عدة قطع من النسيج في المدافن، حيث أشارت الاختبارات إلى أنه مصنع من خيوط نباتيه رفيقه تراوح بين ٣٠ خيطا في ٢٠ خيطا في البوصة المربعة. ومن موقع المستجدة الذي يعود إلى ذات الحقبة من حضارة البداري كشف عن قطع مشابهة. ومن مواقع أخرى تعود إلى ذات حقبة ما قبل الأسرات مثل جرزة ومطمار، كشف عن عينات مشابهة لهذه الأدلة تعود إلى الألف الرابع والخامس ق.م. أما المنسج فقد جاء رسم له على إناء يعود إلى فترة البداري يؤرخ إلى نحو ٤٤٠٠ ق.م (ibid 432).

كذلك كشفت الحفريات في إيران ووادي الرافدين عن قطع من نسيج الكتان في مواقع سوسة وسيالك. ومن وادي السند كشف عن قطع من النسيج من موقع موهنجدارو في باكستان الحالية تورخ إلى نحو ٣٠٠٠ ق.م وهذه القطع تبدو كما لو أنها قد نسجت من نوع قديم من القطن وليس

تنتهي بثمره بيضاوية، يخرج منها عند النضج كتله بيضاء. وشجرة القطن مقدسه عند الهندوس. وهناك نوعان رئيسيان: الأول ما يعرف بقصير التيلة، الذي يزرع في الهند وبعض المناطق الأخرى، والثاني هو القطن طويلة التيلة الذي يزرع في إفريقيا. وشجرة القطن تنتمي إلى نوع الشجيرات القصيرة (shrub) وتحتاج إلى مناخ حار وكميات من المياه. في موقع موهنجدارو في وادي السند في باكستان عثر على مغازل استخدم فيها الفخار والمحار والقشاني لصناعة «الدر» وهو الأداة المستديرة في المغزل (ibid:44). وكذلك قطع من النسيج تؤرخ إلى نحو ١٤٠٠ ق.م، ومن الهند انتشر ربما إلى شرق آسيا، وفي وقت لاحق انتشر شرقا إلى بلاد الرافدين في العصر الأشوري. وذكر هيرودوت إنه يتميز على الصوف في جماله. وقد عرفته سواحل الخليج العربي (ibid:46). كذلك ذكر بليني أن القطن ينمو في جنوب مصر. ويذكر «أن شجرة القطن تنتج ثمرة تخرج منها كتله تغزل منها خيوطا ناعمة ليس هناك خيوط أجمل منها. ويشير الملك الاكسومي عيزانا في مخطوطه أنه حين غزا مروى (نحو ٣٥٠ م) خرب مزارع الذرة والقطن ورمى بهم في نهر سيدي (ibid:48).

النسيج:

تعود بدايات النسيج بمعناه العام إلى ما يعرف «بالحياكة» أو «السدو» والتي تعني، مد اليد نحو الشيء، وسدو الإبل سيرها والسدو تعنى السير اللين». والسداة أو السداية هي الخيوط التي تمد طولاً، واللحمة هي الخيوط التي تمد عرضاً (القحطاني ١٤٢٧:٩١). والحياكة وصل قطعتين من مادة ما (جلد أو قماش أو حصير) بخيط من ذات المادة أو غيرها ببعضها. وكانت صناعة تلك الخيوط أو الحبال ونحوها هي أيضا من المرتكزات التي قامت عليها هذه الصناعة في العصر الحجري القديم الأعلى (٣٥ ألف - ١٠ ألف ق.م). حيث عرف الإنسان صناعة الحبال. فقد كشفت رسومات في كهف لاسكو في فرنسا وبعض مواقع الحضارة الماجدلينية في إسبانيا عن حبال ربما من لحاء الأشجار أو غيره fiber وعن سيور جلديه استخدمت لوصل قطع من الجلود ولعل الجلود كانت أهم مصادر الملابس وقتها (Meyers 1997:191).

الذي يصعب معها السير ما لم تكن هناك فتحات على الجانبين في الأسفل. والمغزل صنع من مواد خام متباينة في فترات متباينة وصنعت الدرة من الحجر ومن الفخار ومن الخشب (ibid:433). وفى السودان كشف عن عديد من أجزاء المغزل وقطع من النسيج في مواقع حضارة كرمة قطنية من الفترة المروية، في مواقع كرانوق وفى مروى وربما تكون من إنتاج محلى. غير أن بذوراً للقطن قد عثر عليها في موقع عافية، أحد مواقع حضارة المجموعة أ (A Group) في النوبة السفلى يعود إلى نحو ٣٠٠٠ ق.م. ما يشير إلى المعرفة بالقطن واستخدامه سواء للغزل أو غيره (Bergman 1975:13). وخلال حملة إنقاذ أثار النوبة كشفت البعثة الاسكندنافية المشتركة عن ١٣ قطعة نسيج من القطن في مدافن تعود إلى الفترة المروية وفترة ما بعد مروى (group x). والعصور المسيحية (ibid).

مجتمع الغزل والنسيج في منطقة شندي:

تقع مدينة شندي في النصف الجنوبي لولاية نهر النيل في منطقه مستوية خالية من العوائق الطبيعية، على سهل رملي، يحاذي السهل الفيضي لنهر النيل، ويبعد عن شاطئ النيل مسافة ميل ونصف الميل. ولا يزيد ارتفاعها عن أربعه آلاف قدم فوق سطح البحر، وهى تبعد مسافة ١٨٠ ميلا تقريبا شمال الخرطوم، وهى أقرب المدن الكبيرة لها. كما تبعد مسافة ثلاثة وعشرون ميلا جنوب مروى القديمة.

لا ندري على وجه الدقة إلى أي تاريخ تعود نشأة مدينة شندي، إذ لم تُجر دراسة علمية قائمه على عمل ميداني آثاري وغيره لكتابة تاريخها. هناك عدد من المواقع الأثرية التي تعود إلى حقبة العصور الحجرية بخاصة العصر الحجري الحديث حول المدينة، لكن يصعب التأكد إن كانت بداياتها تعود إلى تلك الحقبة. كذلك كشف عن بعض المعثورات الخاصة بالحقبة الكوشية حولها إذ إن المركز الثاني لتلك الحضارة (مروى) لم يكن بعيدا عنها، بل تنتشر غير بعيدة عنها مواقع البجراوية والحماداب وودبانقا والمصورات والنقعة وغيرها.

لا شك أن المدينة، أيا كانت بداياتها. قد بدأت كمستوطن

الكتان (ibid:432). وقد لوحظ في هذه الأمثلة المبكرة من النسيج أن الخيط في معظم الحالات لم يكن مفردا وإنما يسير خيطان متوازيان سواء في سدى القطعة أو لحمتها طولا وعرضا. وكذلك في موقع طروادة في تركيا، وموقع العصر البرونزي في قبرص، وموقع مجدو في فلسطين وغيرها من مواقع الألف الثالث ق.م (ibid:435). حيث عثر على عدد من المغازل.

ومع بداية الأسرة المصرية الأولى عرفت عينات من صناعة النسيج، فقد عثر على قطعة في مدفن الملك جر zer في أبيدوس، تشكلت من نحو ١٦٠ خيطا في ١٢٠ خيطا في البوصة المربعة. واستمر الحال كذلك حتى الأسرة الخامسة حين أخذت تظهر بعض الأشكال على قطعة النسيج.

وفى موقع نجع الدير (نحو ١٠٠ ميل جنوب القاهرة) عثر رايزنر على قطع ملابس كاملة بأكمام طويلة تورخ إلى نحو ٢١٥٠ ق.م. وتشير الأدلة إلى أن معظم الملابس كانت تلف حول مختلف أجزاء الجسم بقليل جدا من الحياكة أو عدمها. حيث تمثل اللبس في قطعة مستطيلة تلف حول الجسم وتربط في الأعلى. ولعل ما عثر عليه رايزنر هو أقدم دليل لقطعة ملابس ومخاطة (محاكة). والكثير من قطع الكتان الذي عثر عليها في التقيبات القديمة في مصر تشكل من ثلاثة قطع: قطعين للأكمام وقطعة واحدة تشكل باقي الجلباب وهى تظهر المراحل المبكرة للتفصيل.

في بعض الحالات كان الخيط لا يزال مزدوجا وليس مفردا وان ظل الكتان هو المسيطر خلال الألف الثالث. وتواصلت عمليات النسيج كما تشير الأمثلة من مدافن (الدولة الوسطى في مصر (Crowfoot, 1936:431).

تعدلت الملابس على قلة ما عثر عليه منها، وكانت الحياكة قوية والتفصيل أجود من سابقه، غير أن هذه القطع قد وجدت في مدافن تخص عامة الشعب وليس في مدافن ملكية، إذ أن الرسومات والتمائيل الملكية والخاصة بعلية القوم تظهر عادة ملابس بتفصيل أروع، كما يظهر تمثال من الأسرة الخامسة في الدولة القديمة.

أما في الرسومات والتمائيل المتأخرة (الدولة الحديثة مثلا) فيلاحظ أن الملابس النسائية ضيقة ومحزقة للحد

و«الجلاليب القطنية» و«الشالات» وذلك باستخدام الأنوال اليدوية التي ما يزال بعضهم يستخدمها في المنازل. ومن أشهر العائلات القبطية «آل حزقيال» و«آل هابيل» و«نبيه قلادة» و«جورج مرقص» و«بيشاي أديب». كانت كل أسرة تخصص غرفة صغيرة للنسوج اليدوي، «النول»، في المنازل. والنسيج عمل تشارك فيه الأسرة من الجد وحتى الحفيد، فهو بلغة الاقتصاد الحديث «family business». تتركز هذه الأسر في شندي في حي «مربع واحد»، فهو الحي الذي يشهد أكبر تجمع سكاني عائلي لنقادة شندي وبعض العائلات تتوزع في الأحياء الأخرى مثل حي الزهور على شاطئ النيل^(١) ويسمون أيضا بالأقباط. والقباطى هي طريقة فنية تطبيقية اشتهر بها الأقباط المصريون قبل دخول الإسلام، وأبدعوا فيها، فأصبح اسمهم يطلق عليها سواء كان النساج قبطيا مصرية مسيحيا أم مسلما، حيث أن لفظة «قباطى» مشتقة من كلمة قبط أو cubt المشتقة من الكلمة اليونانية «يجبتوس» والتي تعنى مصر (الطايش، ٢٠٠٠: ٨٨). وقد تحدث الكثيرون عن لفظة القبط ومعناها، كما ذكرت د. سعاد ماهر أن كلمة القباطى هي الاسم الذي أطلق على النسيج المعروف بالإنجليزية «التبستري» بأنها لم تكن مبتدعه من تلك التسمية لأن العرب أطلقوا ذلك المسمى من قبل على النسيج المصري الذي ذاعت شهرته في الأفق آنذاك نسبة إلى أهله القبط، حيث ورد هذا اللفظ في العديد من المصادر العربية القديمة. ويذكر أن «المغريزي» روى في خططه أن المقوقس عظيم القبط كان قد أهدى الرسول (ص) فيما بعثه إليه من هدايا ثمينة قباء وعشرين ثوبا من قباطي مصر. كما كسا الخلفاء الكعبة المشرفة بالقباطي المصرية.

والمركز الآخر للنسيج اليدوي التقليدي الجيد هو المنطقة الجبلاب، التي تتميز بأنواع لا توجد في شندي، مثل «القنجه». ويوجد أيضا منسج في النوراب والمغاوير غرب شندي. وفي الماضي كانت خيوط الغزل تنتج يدويا، وبعد أن ازدهرت صناعة النسيج صارت خيوط الغزل تجلب من قرية الحاج عبدالله، ومن ود مدني^(٢).

الغزل:

ليس هناك تاريخ مؤكد لبداية خطو الإنسان تجاه الغزل،

لقرية صغيرة ثم أخذت تنمو لأسباب غائبة عنا في الوقت الحالي، حتى كانت حقبة نهاية دولة الفونج إذ نسمع عنها، مركزا إداريا لقبيلة الجعليين تحت إمرة الملك نمر الذي تذكر كتب التاريخ (شبيكة ١٩٦٥: ٣٤٢-٣٤٤) أن إسماعيل باشا قائد الحملة التركية قد التقى به في طريقه إلى سنار. وعند عودة إسماعيل باشا بعد فتح سنار والقضاء على دولة الفونج عبر مرة أخرى بشندي، ودار حديث حاد مع الملك نمر انتهى بحرق إسماعيل باشا. ثم كانت حملات الدفتردار الانتقامية التي أدت إلى حرق المدينة وتشريد أهلها بما فيهم الملك نمر. استمرت شندي حاضرة الجعليين تحت الحكم التركي حتى كانت الثورة المهدية، حين سار محمود ود أحمد أحد قادة المهدية بجيشه شمالا لملاقاة الجيش البريطاني القادم لاسترجاع السودان. وكان محسوبا إلى أن الجعليين سيقومون بإسناد الجيش. طلب من شيخ المتمة عبدالله ود سعد أن يخلى المتمة فرفض فما كان من جيش الأنصار إلا القضاء على سكان المدينة وإخلائها عنوة. والمتمة بالطبع هي المدينة الرصيفة لشندي على الضفة الأخرى للنيل.

تتألف شندي من عدد من الأحياء تفصلها عن بعضها بعضاً الميادين العامة أو الأسواق، فقد تعددت القبائل النازلة بشندي، ومنها النمرب والنافعاب وفروع قبائل الجعليين. ويمارس أهل شندي التجارة. أما الزراعة والرعي فقد امتهنتهما المجتمعات المجاورة للمدينة. يذكر بوركهارت «إن الكثير من الرجال والنساء والصبية لا تفارق أيديهم المغازل وهم يغزلون خيوط القطن التي يبيعونها لأهل بربر. وتشبه مغازلهم أهل الشام ومصر، ويزرع القطن في هذه الأرجاء، وتتجه كل البلاد الواقعة على ضفاف النيل» (بوركهارت، ٢١٤ - ٢٨١، الانطواني، ٢٠٠٥: ٢٢٢).

أصبحت صناعة الغزل الآن شبه محتكرة «للقادة» وهي وراثية من أجدادهم بمظهرها القديم والحديث. والنقادة ينتمون إلى قرية نقادة في صعيد مصر، جنوب الأقصر، هاجروا إلى المنطقة في عشرينيات القرن العشرين (حمودة، ٢٠٠٠: ١٦). وكانت هجرتهم لأسباب اقتصادية. وساعد على استقرارهم بمدينة شندي الأرباب سعد وهم يعتقدون المسيحية وبلغ عددهم حوالي ٧٠٠ نسمة ولا زالوا يحترفون صناعة النسيج من «الفردا»، و«الدمور»،

غير نظيفة وقد عثر عليه في مواقع قليلة. وجاء أقدم ظهور للصوف المغزول من الدول الاسكندنافية يعود إلى نحو ١٠٠٠ ق م. إلا أن طبيعته وسرعته، تعزز استخدامه في تاريخ سابق لذلك. وكان الحرير من بين الخامات التي استخدمت في الغزل. ويعد الصينيون أول من عرفوا تربية دودة القز التي تنتج الحرير، واستخدموه في الغزل والنسيج واحتفظوا بسرهم لفترة طويلة. وتعتمد دودة الحرير على شجرة التوت التي تتغذى بها (الطائش ٢٠٠٩: ١٩٦).

وتتباين الألياف في طرق تجهيزها للغزل رغم أنها كلها تحتاج إلى تجهيز بطريقة أو أخرى، ربما تكون سهله أحيانا وأحيانا غير ذلك. الصوف والقطن يحتاج إلى تنظيف فقط قبل أن يغزل. أما الألياف النباتية حتى وإن كانت طرية، فأنها تحتاج إلى تركها في الماء لبعض الوقت لكي تتحلل طبقتها الخارجية (القشرة) وتصبح أكثر ملائمة للغزل.

وبما أن هذه الورقة ترتبط بالغزل والنسيج التقليدي، متخذين من منطقة شندي نموذجا، فإن التركيز هنا يكون على غزل القطن لأنه المادة الخام الوحيدة التي تغزل وتستخدم خيوطها في النسيج. لذا نركز عليه من دون أنواع المادة الخام الأخرى.

إعداد المادة الخام:

يفضل الغزالون القطن منزوع البذرة، أي الذي نزع بذوره مسبقا، ولكن في بعض الحالات يلجأ بعضهم إلى القطن الخام الذي لا يزال يحتفظ بالبذور في داخله. في هذه الحالة يلجأ الغزالون إلى إحدى وسيلتين عند نزع البذور؛ إما عبر أداة خشبية يسمونها «الساقية» تدار بالأيدى وتصدر صوتا عند احتكاك أجزائها، أقرب إلى صوت الساقية حين تدور هذه الأداة تتشكل من جزءين. الجزء الأول عبارة عن فرعين متوسطين في الحجم يصل طول الواحد منهما إلى نحو قدم ونصف، يغرزان في الأرض لنصف قدم وعلى مسافة نحو قدم واحد عن بعضهما. ويتشكل الجزء الثاني أيضا من فرعين يوضعان بشكل أفقي بحيث يتلامسان، أحدهما على الآخر، وفي الوقت نفسه يثبتان على الفرعين المتعامدين. وعلى الجانبين في كل واحد منهما، فتحة تسمح بإدخال قطعة من الخشب يمك

أو متى وأين بدأ يمارس الغزل لأول مرة؟ ولعل السبب يعود إلى كون الدليل المادي للغزل، سواء كانت مادته الخام أو المنتج منه أو الأدوات، جميعها مواد عضوية، نباتية أم حيوانية، فهي قابلة للتلف؛ ولذا، يصعب العثور عليها في المواقع الأثرية المبكرة. غير أنه يمكن القول إن الغزل بمعنى وصل الألياف النباتية أو الحيوانية ببعضها بهدف صناعة حبل، مثلا، يمكن أن تعود إلى العصور الحجرية المبكرة والمتأخرة حيث مارس الإنسان بناء الأكواخ من الأغصان وربطها بحبال وبلحاء بعضها وحياسة الجلود الحيوانية. كما أنهم استخدموا الحبال لقيادة الحيوانات الأليفة وسحب المياه وغيرها، وكلها تحتاج إلى حبال مصنعة من ألياف^(٣). أما إذا تتبعنا الدليل الأثري فقد تم الكشف عن بعض أنواع الألياف الطبيعية نباتية وحيوانية من بعض المواقع مثل الكتان والقطن والحرير والصوف في النسيج القديم، ويعد الكتان من أقدم الألياف التي استخدمت في صناعة الغزل وأكثرها انتشارا في الحضارات القديمة (الطائش ٢٠٠٩: ١٨٩).

ولعل الوصول إلى غزل الكتان قد نتج عن المعرفة بغزل الألياف النباتية عموما حيث لاحظ الإنسان القديم أن الكتان أجودها وأكثرها ملائمة للغزل^(٤). وقد جاءت أدلة لخيوط الكتان من عدد من مواقع الحضارات القديمة.

كشف عن أدلة لغزل الألياف النباتية في مصر ووادي الرافدين وفلسطين. أما القطن الذي يعتقد أن الإنسان قد قام بغزله مثل الصوف والحرير، فقد ظهر لأول مرة في الهند في نحو ٣٠٠٠ ق م. وبعد ذلك عرف في البيرو في أمريكا الجنوبية إلى جانب الألياف النباتية (Grawfoot 1936:431).

أما الصوف ويقصد به ما يغطي جسم الحيوان من شعر أو صوف أو وبر، فقد غزله الأقدمون أيضا. غير أن أقدم الأدلة الأثرية على تآتي من الرومان إذ عرفوا نسلا من الأغنام يعرف بالترنتينا tarantina يعطى صوفا طويلا وناعما وغزيرا، أبيض اللون يعود تاريخه إلى نحو ٢٠٠٠ ق م. (الطائش ٢٠٠٩: ١٩٣).

غير أن الصوف في مصر كان ينظر إليه على أنه مادة

نفسها وهكذا، حتى تتوافر له كمية من القطن النظيف القابل للغزل.

أما القطن منزوع البذور، فلا يحتاج بالطبع سوى لعملية طرق بسيطة، لتعرضه للضغط خلال عمليات ترحيله وتخزينه ونحوها.

أعداد الخيوط:

يعرف الغزل بأنه تصنيع الخيوط بسحب وبرم الألياف. ويعنى السحب جر الألياف طوليا بحيث تكون متوازنة لبعضها ومتماسكة مع بعضها وغير متشابكة ومتراكمة. ولعل البرم هو أهم مراحل الغزل أي إعداد الخيوط، حيث تتماسك الألياف بالالتفاف على بعضها بعضاً. وعملية البرم هي التي تجعل الخيوط قوية ومطاوعة. كما يمكن أن يتم البرم على أحد اتجاهين، إلى اليسار أو إلى اليمين. ويمكن أن يتم الغزل باستخدام أداة أو من دونها.

الغزل من دون استخدام أداة تمت ممارسته وسط عدد من المجتمعات القديمة، أي أن الغزل يتم بالأيدي المجردة إذ يمكن إنتاج الخيط ببرم الألياف بين الأصابع أو بين الكف وأي جزء آخر من الجسم (الفخذ مثلاً). وربما كانت تلك هي الطريقة التي بدأ بها الغزل أول ما بدا (Grawfoot 1964:432).

أما الغزل باستخدام أداة فقد جاءت الحاجة إليها لطبي الخيط على شيء بعد غزله وبرمه، إذ لا يمكن أن يترك سائبا. ومن ناحية أخرى، لتسهيل عملية البرم وحسن أدائها. في البدء، فيما يظن، استخدم الإنسان عصا صغيرة spindle تطورت إلى ما يعرف بالمغزل أو «المترار».

«المترار» عبارة عن قطعة رفيعة من نبات قوى ومطاوع (جزء من جريدة نخل أو غصن شجره مثلاً) لا يزيد طوله عن القدم يصقل الغصن بعد أن تزال عنه القشرة وجميع النتوءات الأخرى ويمكن تصنيعه من فروع الأشجار أو العظام أو العاج أو حتى المعدن. في رأس عصا المدرار يقطع شرخا ليشكل ما يشبه السنارة برأس حاد تأخذ شكل مشبك يمسك به الخيط أثناء عملية الغزل. ويطلق عليه «الشوكة» أو الدقن لأنه يشبه اللحية (شكل ١ — ج). وتلحق بالمدرار

بها الشخص بينما يمسك شخص آخر بالقطعة المقابلة ويوضع القطن بين الفرعين ذوات الشكل الاسطواني وتدار الاسطوانتان ليتمر القطن من خلالها وتسقط البذور تلقائيا (شكل ١-أ). هذه الساقية لا تكون موجودة في كل بيت بل لدى بعض النساء دون غيرهن ويقمن بهذه المهمة دون أجر مادي حيث يكتفين بأخذ البذرة التي يسمونها «الغلغل» (بضم الغين وتسكين اللام في الحالتين) وهي غنية بالدهون). ويستفاد من هذه البذرة غذاء للخراف التي تتميز عن غيرها بالشحم واللحم وتباع بأثمان باهظة^(٥). أما الطريقة الثانية فهي نزع البذرة بشكل مباشر من القطن بالأيدي، وهي بالطبع وإن كانت مباشرة ألا أنها مجهدّة وبطيئة. كما أن النزع بالأيدي تضيق معه كمية من القطن الملتصق بالبذور.

تنتهي الطريقتان إلى قطن خال من البذور إلا أنه لا يخلو من الشوائب التي تتشكل من بقايا الأعشاب وأوراق النبات وفتات البذور. وهذه بدورها تحتاج إلى معالجة أخرى قبل البدء في إعداد الخيط أو ما يعرف بالغزل. وتعرف مرحلة التنظيف هذه بالطرق.

الطرق:

تتطلب عملية الغزل أمرين: أولاًهما أن يكون القطن غير متماسك بالشكل الذي يحول دون انسيابه خلال الغزل. وللوصول إلى تلك المرحلة يستخدم الغزالون لطرق وخلخلة الألياف عن بعضها أداة «الطراق» وهي فرع رفيع من النبات، غصن رفيع أو جريدة نخل، يكون مطاوعا، يقوّس على شكل نصف دائرة أو هلال. ثم يوصل بين طرفية خيط متين، وربما سير من الجلد. ويكون مشدودا بقدر الإمكان.

يضع الشخص كمية، أي كتلة، من القطن على الخيط ثم يشد الخيط إلى أسفل مرات عديدة، والقطن معلق به، فتأخذ الشوائب في التساقط، وكذلك الغبار، وكل ما يلحق به أثناء عملية جمع القطن أو نزع البذور قبل أو بعد ذلك (شكل ١-ب). تكرار عملية شد الخيوط تؤدي إلى تنظيف القطن تماما من الشوائب، وتتفكك أجزاءه وتظهر الألياف بشكل جيد. يضع الصانع هذه الكتلة النظيفة جانبا ويتناول كتلة قطنية أخرى ليضعها على «الطراق» ويكرر العملية

من عملها المنزلي، وعادة ما تدر على الواحدة منهن دخلا معقولا، تجابه به بعض متطلباتها المعيشية.

ترتكز الدراسات الإثنواريكلوجية في الغالب الأعم كما ذكرنا، على أعمال ميدانية إذ أنها تتطلب معاينة الممارسة وطرح استفسارات ورصد ملاحظات، إلى جانب تنفيذ المنهج الذي يجب أن تتوافر فيه معرفة آثارية ودراية بطبيعة الهدف الذي تجمع المادة من أجله. وبما أن مجتمع النساجين في شندي هو أحد المجتمعات القليلة المتبقية التي تمارس هذه الحرفة، فقد قمنا بأجراء دراسة ميدانية هناك خلال العام ٢٠١٠ في محاولة لرصد تفاصيل هذه الحرفة.

يتكون مجتمع النساجين هناك من نحو ١٠ أسر تقطن في حي «مربع واحد» من مدينة شندي وهو أحد أحياء الطبقة الوسطى في وسط المدينة، وأحد أحيائها القديمة. ارتكز المسح على زيارتين خلال الفترة من فبراير إلى إبريل ٢٠١٠م شكلت مسحا أوليا. بعدها قمنا باختبار عينة أجريننا خلالها مقابلات ووقفنا على جميع مراحل إنتاج النسيج، وسجلنا ملاحظات، وطرحنا أسئلة أخذنا الإجابات عليها، وقمنا بتصوير وتوثيق بعض المشاهد. النسيج حرفة يدوية تعني ترابط خيوط مرنة مع بعضها بعضاً لتكون وحدة يطلق عليها اسم نسيج (السلطان، ١٩٩٠: ٥-٦)، وكما ذكرنا فقد تتباين المادة الخام التي تصنع منها هذه الخيوط، حيث بدأ الإنسان بالخيوط النباتية وتحول إلى الصوف والشعر ثم القطن. ونتج أصلا عن الحاجة لحماية الجسم البشري من التقلبات الجوية. إذ كانت تحاك أجزاء من الجلد مع بعضها بخيوط من الجلد أيضاً أو خيوط نباتية، قبل أن يمارس الإنسان النسيج بمعناه الحقيقي. أما النسيج المقصود هنا فهو عبارة عن تقاطع خيوط طولية متجاوزة تسمى بخيوط «السده» مع خيوط عرضية تسمى بخيوط «اللحمة». أما الأداة التي تقوم بعملية النسيج فيطلق عليها اسم «النول» كما يطلق على المواد الأولية المستخدمة في صناعة المنسوج اسم خامات النسيج (الطايش، ٢٠٠٠: ٨٨).

يعد نسيج «السدي» أكثر الأنسجة شيوعاً واستعمالاً، فقد دلت الإحصائيات على أن ٨٠٪ من الأقمشة المنسوجة تصنع بطريقه نسيج السدي وذلك لسهولة صنعه وسرعة

«درة» وهي قطعة مستديرة تصنع من الحجر أو القرع أو العظام أو الفخار، والفخار هو الغالب حيث تؤخذ كسرة من إناء قديم وتشكل على شكل دائرة أسطوانية بفتحة صغيره في وسطها يدخل من خلالها المترار بطرفه الأسفل وتثبت في منطقه محددة تحت طرفه الأعلى حيث تضيق فتحة «الدرة» على محيط المترار.

أول ما يقوم به الصانع هو توصيل قطعة من القطن النظيف مما يراد غزله ووضعها على سنارة المترار (المغزل)، الذي يشكل مشبكاً معقوفاً على شكل سنارة، كما ذكرنا. ثم يبدأ ببرم عصا المترار على الفخذ العاري باليد اليمنى. والبرم يكون من الخلف إلى الإمام. وفي الوقت يمسك بالقطن باليد اليسرى. بعد برمة واحدة أو اثنتين يترك المترار حراً طليقاً في الهواء ويظل ممسكاً بالقطن ويبقى المترار دائراً في الاتجاه المعاكس للبرم. وخلال هذه العملية يقوم المترار تلقائياً ببرم جزء من كتله القطن وتحويلها إلى خيط. خلال هذه العملية يكون الصانع قد سحب كتلة القطن إلى أعلى حيث تسحب الألياف بشكل طولي ويكون المترار في الوقت نفسه قد قام ببرم الألياف حول بعضها بعضاً، وهكذا تتحول المادة القطنية إلى خيط طولي. وبعد أن يكون المترار قد توقف عن الدوران، بعد أن أكمل دورته، يقوم الغزال بطي الخيط المنتج حول المترار تحت الدرة. ثم يضيف الغزال كمية من القطن للكمية المتبقية في يده اليسرى. وهكذا تكرر هذه العملية حتى يتراكم الخيط على المترار تحت الدرة مشكلاً شكلاً هرمياً (مخروطاً) قاعدته قاعدة الدرة ورأسه في الأسفل، وهو ما يعرف في شمالي السودان بـ«الفسايخ»، عند ذلك يقوم الغزال بالضغط على «الدرة» من أعلى فينسحب معها «الفسايخ» عبر عصا المترار إلى أسفل ويكون جاهزاً للبيع للعاملين في مجال النسيج.

وبالطبع، وإن تشابهت هذه «الفسايخ» شكلاً وحجماً، إلا إن الغازلات الماهرات ينتجن خيوطاً أكثر اتساقاً في حجمها وأقوى في برمها ومتانتها عن غيرها. فالغازلة المتمرسه تنتج غزلاً لا يتسبب في مشاكل خلال عملية النسيج كالقطع المستمر وعدم الأنسياب.

إن عملية الغزل عادة ما تقوم بها الإناث دون الذكور وفي الغالب الأمهات دون الفتيات. وتتم بعد أن تفرغ الواحدة

يتم رص بكرات الخيط الملونة أسفل القوائم على الأرض، وتثبت البكرات الصغيرة على الأرض بواسطة مسامير لكي لا تتحرك في حالة السحب، وتوجد مسافة بين الجزء الأمامي للمحوال والجزء الخلفي طولها ١٤٠سم، وهي المسافة التي يقف فيها الصانع على المحوال ليتم سحب الخيط من الجزء الأمامي وتحويله إلى جدار السدى. الذي يتكون من ثلاث قوائم اثنتان من القوائم رأسية والثالثة أفقية تثبت على الحائط. وتوجد في مسامير كبيرة تشد الخيط ما بين القائم الأول والثاني. ويتم تحويل الخيط من جدار السدى إلى خشبة يطلقون عليها اسم «الملفوف»^(٧).

الملفوف:

«الملفوف» خشبه طولها نحو ٦٠سم، وتعرف أحيانا «بالبوصة»، يتم فيها تفريق الخيط من جدار السدى. وتتباين ألوان الخيط في الملفوف حسب الطلب. وبعد تحويل الخيط إلى بكرة تنقل إلى أصحاب المناسج لعمل الثياب التي غالبا ما تكون ثياباً نسائية.

أما تحضير خيوط اللحمة فتتم في آله تسمى «محوال اللحم» وهي عبارة عن أداة مصنوعة من أربع مواسير مستطيلة الشكل وبها أربعة زوايا تعطى شكل المعين. وفي الجانب الأيمن والأيسر، تحوى تروساً لتساعد على تحريكها وبها أرجل معدنية مثبتة على الأرض. وفي الأعلى نجد عموداً معدنياً به حلقات تمر عبرها الخيوط من البكرات التي توجد على الأرض بجانبها، ثم تمر بالحلقات المثبتة في العمود المعدني. وضعت هذه الحلقات لكي لا تتداخل الخيوط مع بعضها بعضاً، ويحرك «محوال اللحم» بواسطة يد معدنية ويلتف الخيط في شكل معين ثم يستخرج في لفائف طويلة ويسمى الواحدة منها «جز»، والمجموعة يطلقون عليها عبارة «رزمة»^(٨).

المناسج:

نجد في منطقته شندی نوعين من المناسج اليدوية: أ/ النول. ب/ اللطاش.

١- النول:

إنتاجه وقلة تكلفه. ولكثرة استخدام هذا النوع من التركيب النسيجي في الأقمشة القطنية أطلق عليه اسم نسيج الأقطان وأيضاً اسم النسيج الشعبي وأحياناً نسيج التفطة (نصر والزغبى ٢٠٠٥م).

إعداد خيوط الغزل لعملية النسيج:

إن عملية النسيج، كأي صناعة أخرى، لابد لها من إعداد المادة الخام الخاصة بها، وهي خيوط الغزل اللازمة لإنتاج النسيج. والخيوط بدورها تحتاج إلى عمليات إجرائية أخرى تسمح بتحويلها إلى منسوجات قبل عملية النسيج. تحول الخيوط إلى سدا ولحمة ضمن العمليات الضرورية، وتسمى عمليات تحضير الخيوط للنسيج، وهي عملية مستقلة تماماً عن عملية النسيج. ويتكون تحضير الخيوط من العمليات الآتية:

اللحمة:

وهي عملية التدويرات، أو ما يعرف بتحويل «الفسايخ» وهي لف الخيوط وتحويلها إلى بكرات كروية صغيرة أو كبيرة ويتراوح وزنها من ربع كيلو غرام إلى كيلو غرامين في أشكال وأحجام متعددة تناسب عملية النسيج.

التسدية:

وهي تجميع عدد من الخيوط من عدد من العبوات تصل إلى ٥٠٠ فتله، على بكرة واحدة كبيرة تسمى مطواة التسدية.

إعداد خيوط اللحمة:

ويتم تدوير خيوط اللحمة في صورة عبوة خاصة تأخذ شكل كروي (عابدين والربع: ٢٠٠٣م ٧٤) وتتم عملية التسدية بأداة يدوية تسمى (محوال السدى)، كما أفادنا الصانع الذي يعمل في هذه الأداة (عبدالناصر عثمان). والمحوال اليدوي أداة تتكون من ثلاث قوائم من الخشب، طول الواحدة نحو مترين، اثنان منهما يأخذان شكلاً رأسياً والثالثة تأخذ شكلاً أفقياً، بها حلقات من السلك تشكل ممرات للخيوط لفرزها عن بعضها وفي حالة الخيوط الملونة يمر كل لون في ممر قائم بذاته.

لوح متصل بإحدى الدرقين بواسطة حبل متين، ويتم استخدامها بالقدمين.

٦. **الجعزل:** عمود من الخشب مثبت في نهاية النول على بعد ٣ أمتار، وبه بكرة حديد عليها حبل من البلاستيك المقوّى، يقوم بشد خيوط السداة.

٧. **المطواة:** جاء الاسم من الفعل «يطوى» وهي قطعة من الخشب أسطوانية الشكل في مقدمة النول يلف حولها القماش المنسوج.

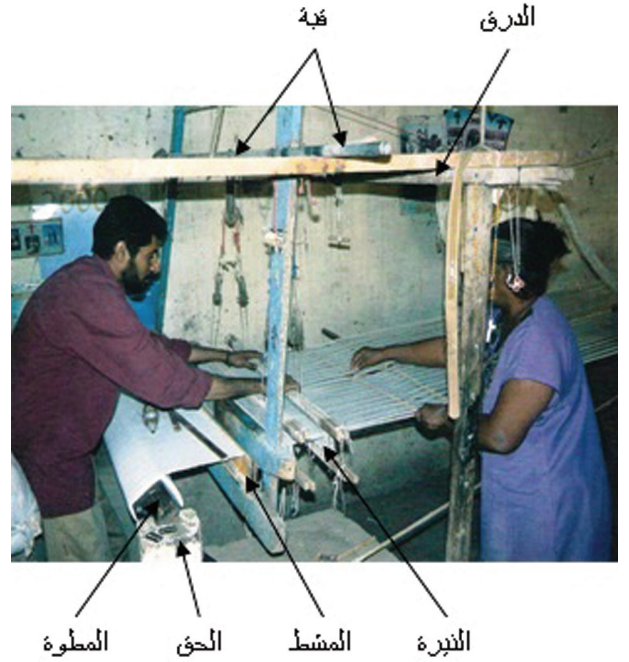
٨. **السقف أو القبة:** ألواح مستعرضة فوق النول، وهي من الخشب، وتعد دعائم ثابتة لاستخدامها في حركة الدرق صعوداً وهبوطاً.

٢- اللطاش:

منسج يدوي يشبه النول، غير أنه يختلف عنه في بعض التفاصيل. واللطاش نوعان: لطاش صغير يعمل به فتقة واحدة، ولطاش كبير يعمل به فتقتان. واشتهر بالصناعة به النساجون في منطقة الجبلاب، إلى الشمال من شندي، على الضفة الغربية. أما الاختلاف بين النول واللطاش فيتلخص في الآتي: يوجد الماكوك في اللطاش داخل علبه من المعدن، ويوجد مقبض يسحب الماكوك من العلبة، يمسكه الصانع بيده يسحبه يمينا ويسارا. الدواستان في اللطاش هما خشبتان طويلتان أما في النول فالأمر عكس ذلك. والمشط في اللطاش مصنوع من المعدن، وفي مطوه اللطاش ترس (عجلة). كذلك لوحظ عدم وجود جعزل في اللطاش بينما يوجد في النول. وتعمل آلة اللطاش بعدد من البكرات أي «الملافي» ولكن آلة النول تعمل ببكرة واحدة فقط تعرف بالمزدية.

عملية التبويس:

منفصلة عن المنسج، وهي عبارة عن لف الخيط في البكرة. وتتم هذه العملية في دولايب المنسج الذي يتكون من عجله معدنية وسرعة وسارية وبكرة (بوصة). العجلة المعدنية تحرك بيد معدنية ملحقة بها، وتدار بالكف اليمنى، بينما الكف اليسرى تمسك بالخيط. توضع البكرة على قضيب معدني وينتقل الخيط من السرجة، وهي أداة



لوحة (١-أ) أجزاء النول

ورد معنى «النول» في مختار الصحاح بالمشتق من «المنوال» وجمعه «أنوال». وتوجد العديد من «الأنوال»، وهي في الغالب تتدرج تبعا لتطور مراحل النسيج اليدوي. وعادة ما يتم صنعه من العوارض الخشبية (على، ٢٠٠٧: ٢٨). أما أهم أجزاء النول (لوحة ١-أ)، فهي:

١. **الدرق:** إطار خشبي بعرض المنسج (متر وربع تقريبا) به مجموعة من النيرات.
٢. **المشط:** إطار خشبي بعرض المنسج وبه مجموعة من الأسلاك المعدنية المرصوفة راسياً. جوار بعضها بعضاً بإتقان شديد والمسافة بين كل سلك والآخر نحو ملم واحد.
٣. **النيرة:** سلك مبروم وبه فتحة تحيط بخيط السداة لرفعها وخفضها.
٤. **الماكوك:** ويصنع من أقوى أنواع الأخشاب، عريض في الوسط ومدبب، في مقدمته قطعة معدنية مدببة تسمى الرصاصة وطوله قدم واحد ومفتوح في وسطه ليحمل البوص التي يلف حوله خيط اللحم.
٥. **الدواستان:** لوحان من الخشب يثبتان أسفل النول بحيث تسهل حركتهما إلى أعلى وإلى أسفل، وكل

النساجة:

يتم تثبيت النول من أعلى على جدار الغرفة ويسمى «قبة المنسج» ويثبت من أسفل من اليمين في مبنى من الطين مستطيل الشكل، وهو ملتصق بجدار الغرفة، ويثبت من ناحية اليسار في مبنى الطين أيضاً. وبينهما فاصل أو مسافة توضع بها الدواسات التي يتم تثبيتهما بثلاثة قطع من المعدن على سطح الأرض. ويدخل الناسج إلى المنسج من ناحية اليسار عن طريق فتحه صغيره ما بين المبنى والجدران. ويوجد مسند في مؤخرة المنسج يسمونه «القاعدة» يسند آلية الناسج ظهره.

تبدأ عملية النساجة بمسك الناسج الماكوك بالكف اليمنى ويمسك الدف بالكف اليسرى، ويضع رجله على الدواسات أسفل «النول»، ويتم حذف الماكوك من اليمين إلى اليسار ويتم استلامه بكفه اليسرى، وحينئذ يمسك الدف بكفه اليمنى ثم يسحب الدف عليه، وهكذا لدمج خيوط «الحمة» مع «السدى».

إذا كان القماش بلون واحد مثل فردة الغطاء. فإن السادة واللحام تكون من لون واحد، أما إن أراد أن يحوى النسيج «زيك» أي شريط مثلاً في الفردة بلون آخر فيضع مكوك بخيط ملون.

بعد كل فترة تثبت المطوة في خشبة تسمى «الحق» وتنزل في المطوة قطعة من قضيب معدني تسمى «بالقلاب» يتم بها شد المطوة لسحب القماش إلى الخلف ويتم لفه على المطوة حتى تكتمل قطعة النسيج.

الصبغة:

تعرف بعملية «التبييض» ورغم أنهم يأتون بالخيوط اللازمة مصبوغة أصلاً إلا أنهم في بعض الحالات يصبغون الخيط من أسمر إلى أبيض، لتغير لون النسيج، ومن الأسمر إلى الأزرق. ما يعني تحويل لون النسيج إلى لون آخر غير لونه الطبيعي. ويتم تعديل اللون بحكم طبيعته وظيفته واستخدام قطعة النسيج؛ فالملابس النسائية مثلاً، تتطلب إدخال ألوان على قطعة النسيج لغرض تمييزها من ناحية، وإدخال بعد جمالي عليها من ناحية أخرى. والملابس الرجالية مثل الشالات، درج التقليد على إضافة شريط من لون غير ألوانها.



البوص

السرجة

لوحه (١- ب) الدولا ب

خشبية هندسية الشكل ترتكز على قاعدة من الحجر على شكل صبة يسمونها سارية. يسير الخيط من السرجة عبر العجلة المعدنية عند دورتها إلى البكرة. (لوحه ١. ب).

عملية اللقوة:

القوة هي إحدى أصعب العمليات في النسيج، وعادة مايقوم بها الناسج نفسه أو يقوم بها عامل خاص يسمى (عامل اللقوة) واللقوة نوعان لقوة النول ولقوة اللطاش.

لقوة النول:

تتم عملية اللقوة بعد نهاية المزدية «القرقرة». تبدأ عملية «اللقوة» بكتلة من الخيط، يعلق على جدار الغرفة التي بها النول ثم ينساب من أعلى إلى أسفل. وتبدأ البسطة من البكرة الخشبية الثانية «الزنتوت» توجد به ممرات من الخيط لتقسيم الخيط الداخل ليفرد بعرض الفتحة، ويمر بالقصبتين لمساعدة النير لتصنع «النفس» الذي يحوى المشط، ويمر الخيط بالمشط كل فتلة في ممر منفصل. ويتم فرد الخيوط التي مرت بالمشط وتثبتها في المطوة.

لقوة اللطاش:

يبدأ اللطاش من خشبة طويلة بها بكرات من الخيزران توجد بها حواجز لممرات الخيوط وهى معلقة في سقف الغرفة التي يوجد بها المنسج. فيبدأ فرد الخيط من أسفل إلى أعلى ليمر بالبكرات وينزل المحجز الخلفي ثم يمر إلى القصبتين ثم إلى النير ثم إلى المشط.

لأن الثوب النسائي في ملمسه ناعم على الجسم ولباسه بالنسبة للنساء في المنازل مفضل رغم أن طرزه الزخرفية ليست بأجمل. أما الاستهلاك فيتوقف على عدة أمور، من بينها كثرة الاستخدام وتكراره، فالملابس التي تستخدم بشكل يومي تكون عرضه للاستهلاك أكثر من غيرها، أما تلك التي تستخدم في المناسبات الاجتماعية (أفراح وأتراح) أو المناسبات الدينية، تكون عرضه للاستهلاك بشكل أقل.

ضمن عدد من الحرف التقليدية فإن حرفة الغزل والنسيج التقليدي آخذة في الزوال. وعن قريب ستحول إلى سجل الذاكرة الشعبية ثم إلى السجل الأثري. وستبقى الكثير من جوانبها خافية عن الأجيال القادمة. إن الحفاظ على ما تبقى منها على قلته، والعمل على استمراريته، أو على الأقل تسجيله بشكل أكثر تفصيلاً، يبقى واجباً ملحاً.



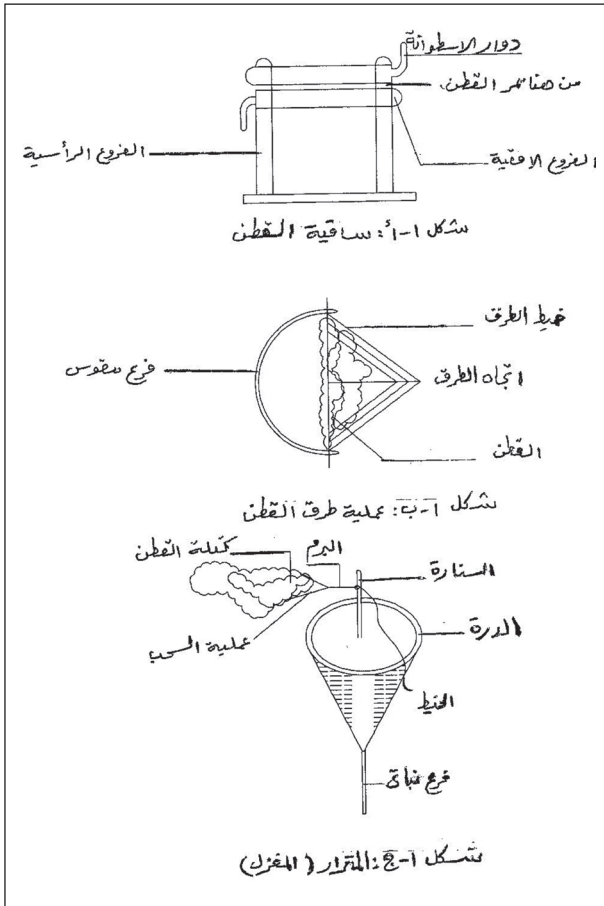
لوحة (١-ج) بعض أنواع المنسوجات

استخدام الأقمشة واستهلاكها:

تستخدم الأقمشة المنسوجة الفراد والثياب النسائية والشالات والجلاليب القطنية ونحوها. تصنع في موسم الشتاء بكميات كبيره نسبة لزيادة الاستهلاك، فالحج البارد يتطلب صنع كميات كبيرة لأن الأقمشة القطنية تساعد في الوقاية من البرد، عكس الحال في فصل الصيف إذ يقل الصنع والاستهلاك.

أما في شهر رمضان وكذلك موسم الحج وموسم العيدين (الأضحى والفطر). فيزداد الطلب عليها حيث يقدمها السودانيون بكميات كبيره كهدايا لإخوانهم في البلاد الأخرى. وتعرض المنسوجات في بعض المحلات التجارية في الأسواق كما تباع في مكان الصنعة (المنازل) أو يعرضوها الناسجون أنفسهم في محطات طرق المواصلات والمواقف، وهناك زبائن لهم طلبات خاصة يوفرونها لهم. والنسيج القطني مرغوب في الريف والمدن نسبة للمميزات التي يتميز بها القطن عن بقية الأقمشة. وتستخدمه النساء في الحداد عند موت شخص قريب وإظهاراً للحزن حيث تتخلى النساء عن لبس الملابس المزركشة ويستبدلنها بملابس غير زاهية.

أما القماش البالي (القديم) فيستخدم في عدة أغراض (لوحة ١-ج) للأطفال، أو للمرأة الواضعة، أو للنظافة، وبعضهم يضعونه في السرير على الملاء لأن القماش القطني ناعم الملمس على الجسم. تفضل الأقمشة القطنية على الأقمشة غير القطنية خاصة الثياب النسائية



هيام محمد الأمين أحمد سليم: قسم الآثار والمتاحف - جامعة شندي

المراجع:

أولاً: المراجع العربية

- إبراهيم، إبراهيم بول ١٩٧١م، «القطن تاريخ زراعته على مر العصور» مجلة العربي، العدد ١٤٢. ص ٩٥.
- الحسن، أحمد أبو القاسم ومحمد علي، عباس ٢٠٠٨، الفخار الأثري مناهج دراسة وتحليل، جامعة السلطان قابوس عمان.
- آدمز، وليم، ٢٠٠٤م، النوبة رواق إفريقيا، ترجمة التجاني محبوب محمود، شركة الفاطميون أخوان، القاهرة، الطبعة الأولى.
- إمام، سامي أحمد عبد الحليم، ١٩٩٠م، المنسوجات الأثرية القبطية والإسلامية (المحفوظة في متحف جاير أندرسون بالقاهرة) مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
- الأمين، يوسف، ٢٠٠٨م، الإثنوآركيولوجيا، دار قوافل للنشر، الرياض.
- الأطواني، أشعيا العكاري، ٢٠٠٥م، القبائل السودانية حياتها وتقاليدها ذكريات من السودان، بيروت.
- بوركهارت، جون لويس ٢٠٠٧م، رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- حمودة، عبدالله علي، ٢٠٠٠م، التطور والنمو الحضاري لمدينة شندي، رسالة ماجستير غير منشورة.
- دانيال، غلين، ٢٠٠٠م موجز تاريخ علم الآثار، ترجمة عباس سيد أحمد محمد علي، دار الفيصل، الرياض.
- سلطان، محمد أحمد، ١٩٩٠م، الخامات النسيجية. منشأة المعارف بالاسكندرية جلال وشركاه.
- شبيكه، مكي، ١٩٦٥م، تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن ١٩م، دار الثقافة بيروت.
- عابدين، عليا والريح، زينب ٢٠٠٣م، دراسات في النسيج وأسس تنفيذ الملابس، دار الفكر العربي الطبعة الأولى.
- الطايش، علي أحمد ٢٠٠٩م «نسيج الأندلس في العصر الإسلامي»، في السعيد، دراسات في الآثار، جامعة الملك سعود، الرياض.
- الطايش، علي أحمد، ٢٠٠٠، الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة (في العصريين الأموي والعباسي)، مكتبة الزهراء، القاهرة.
- عبد الحافظ، نهى ٢٠٠٥م الدراسات الأثنوآركيولوجيا (الآثار الحية ودورها في تفسير الآثار السودانية رؤية جديدة لتفسير المخريشات علي الحوش الكبير في موقع المصورات الصفراء باستخدام مدخل أثنوآركيولوجي)، رسالة ماجستير غير منشورة.
- علام، اعتماد ١٩٩١م، الحرف والصناعات التقليدية بين الثبات والتغير، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.
- علي، أبو عبدة حامد، ٢٠٠٧م، الترابط بين تصميم المنسوجات والتصميم الداخلي، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة السودان.
- عيسى، خضر آدم، ٢٠٠٠م، الأثاث والعادات الجنائزية الكوشية في العصر المروي، رسالة غير منشورة.
- القحطاني، دليل بنت مطلق بن شافى ١٤٢٠هـ، الحلى النسائية التقليدية بمنطقة عسير، مكتبة الملك فهد الرياض.
- محمود، سامية حيدر الشيخ، ٢٠٠٦م، فن تصميم المنسوجات النسائية في السودان (الثوب السوداني نموذجاً) رسالة ماجستير غير منشورة.
- نصر، أنصاف وكوثر الزغبى، ٢٠٠٣م، دراسات في النسيج، دار الفكر العربي.
- اليونسكو المتحف الدولي، ٢٠٠٦م، العدد المزدوج ٢٢٩. ٢٣٠، منظمة اليونسكو.
- إفادت شخصية:
- فاخوري، ليلي، إفادة شخصية من جالية النقادة بشندي ٢٤/٢/٢٠١٠م.
- حنا، مكرم، إفادة شخصية من جالية النقادة بشندي ٢٥/٢/٢٠١٠م.
- عثمان، عبدالناصر، إفادة شخصية من النوراب غرب شندي ٢٨/٢/٢٠١٠م.
- مبارك، زغلول، إفادة شخصية من جالية النقادة بشندي ٢٨/٢/٢٠١٠م.
- محمد علي، عباس سيد أحمد، إفادة شخصية ١/٤/٢٠١٠م.

ثانياً: المراجع غير العربية

- Broudy, E. 1979. **The book of the loom**, New York.
- Caton Thompson, D. and Gardiner, E 1934 **The Desert Fayum**, Londo
- Helback H. 1963G «Textiles Form Catal Huyuk», **Archaeology** No 16 - 1 P 39 - 46.
- Forbeo, R. 1964. **Studies in ancient Technology**, Leiden.
- Madani, Y, H 1980. Al angareb: Traditional bed craft industry in the sudan. Unpuplished M.A.thesis, university of Leeds.
- Kendall, T. 1982. **Kush: lost kingdom of the Nile**, Brockto.
- Jone, J. «The textile from the pan -Grave cemetery», **Sudan and Nubia**, No 5: p38-39.
- Robertson, J. and Mohammed -Ali, A, 1973 «Meroitic modelled pottery» In Shinnie (ed), **Canadian archacology Aboard**, university of Calgary, P.85-96.
- Shinnie, P. L. 1967. **Meroe. A civilization of the sudan**, London.
- Bergman, I. 1975. **Late Nubian Textiles**, Scandinavian University books, Lund.
- Grawfoot,G. 1964. «Textiles Basketry and Mats» (in) Singer et.al. (ed). **A History of Technology**, Oxford University Press p.413-455
- Grawfoot, G. 1936. The handspining of cotton in The Sudan. "**Sudan Notes and Records**" No18 p.82-89,
- Meyers, M. 1977. **Archaeology in The Near East**
- Kendall, T. 1989. «Ethnoarchaeology in meroitic studies» **Meroitica** 10:125-146.